﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: 82]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العاقلُ من اتَّعظ بغيره، والشقيُّ من اتَّعظ بنفسِه

لمّا أخبرَ سبحانه أنَّ فريقًا من قوم قارونَ افتتنوا ببريقِ زينته، وتمنَّوا أنْ يكونوا مثلَه؛ أخبر سبحانه أنَّهم تراجعوا عن قولهم حينَ عاينوا ما نزلَ به من الخسف، وصار ذلك زاجرًا لهم عن حبِّ الدُّنيا، ومخالفةِ موسى عليه السلام، وداعيًا إلى الرِّضا بقضاء الله تعالى وقسمتِه، وإلى إظهار الطّاعةِ والانقيادِ لأنبياءِ الله ورُسُلِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَنَّوْاْ﴾: أصل (مني) يدلُّ على تقديرِ شيءٍ، ونفاذِ القضاء فيه[2]. والمَنَى: القَدَر، منى لك الله ما يسرُّك؛ والمَنيَّة: الموت؛ لأنَّها مقدَّرة، والجمعُ: منايا، والمُنْيَة: واحدةُ المُنَى، وهي ما يتمنَّى الرَّجل. والأمنيَّة: واحدة الأمانيِّ[3]. والتَّمنّي: تشهّي حصولِ الأمر المرغوبِ فيه، وحديثُ النَّفس بما يكون وما لا يكون، وهو من تقدير الشَّيء في النَّفس، وتصويره فيها، وذلك يكونُ عن تخمينٍ وظنٍّ، ويكون عن رويَّةٍ وبناءٍ على أصل، ولكن لمّا كان أكثرُه عن تخمينٍ صار الكذب له أملكَ، والأمنيَّة: الصّورة الحاصلة في النَّفس من تمنّي الشَّيء. والمرادُ بالتمنّي في الآية: تشهّي حصولِ حالِ قارونَ لهم، ونيلِ مكانته وقيمته الاجتماعيّة.

2) ﴿مَكَانَهُۥ﴾: أصلُ (مكن) يدلُّ على رسوخِ الشَّيء مجتمعًا[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 18، والمراغي، تفسير القرآن العظيم: 20/ 101.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (مني).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مكن).

والمكان: الموضعُ الحاوي للشَّيء[1]. والمكانُ في أصل تقدير الفعل (مَفْعَل) من الكون؛ لأنَّه موضوعٌ لكينونة الشَّيء فيه، غير أنَّه لكثرته في الكلام أُجري مُجرى (فَعال)[2]، والمكانُ: الموضعُ، والجمع: أمكِنَة، وأماكن. وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾؛ أي: منزلتَه من الدُّنيا[3].

3) ﴿وَيْكَأَنَّ﴾: (وَيْ) كلمة تُذكَرُ للتَّحسُّر والتَّندُّم والتَّعجُّب، ويُكَنَّى بها عن الويل، وقد تدخل (وَيْ) على (كأنْ) المخففَّة والمشدَّدة، تقول: ويْ كأنْ، وويكأنَّ[4]، وهي مفصولة، تقول: وي، ثم تبتدئُ فتقول: كأن[5]. قال تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فكأنه قال: وي، ثم استأنف (كأنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء)، وهو تعجُّب، وكأنْ تفيدُ معنى الظنِّ[6]، ثمَّ لمّا كثر بها الكلام، وُصِلت بما ليست منه[7]. ومعناها في الآية: ما أشبه الأمر أنَّ الله يبسط الرِّزق[8]. ثمَّ تندَّموا وقالوا: كأنَّه لا يفلح الكافرون[9].

4) ﴿مَّنَّ﴾: أصل (منن) يدلُّ على اصطناع الخير[10]. والمِنَّة: النِّعمة الثَّقيلة، يقال: مَنَّ عليه مَنًّا، إذا أنعمَ، وكذا منَّ عليه مِنَّة: امتنَّ عليه[11]. والمَنُّ: ما يَمُنُّ الله به ممّا لا تعبَ فيه ولا نصبَ[12]. والمَنُّ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]: أن تمُنَّ بما أعطيتَ وتعتدَّ به بذكر الصدقة والاستكثار عليه، كأنَّك إنَّما تقصد به الاعتداد[13]. ومن أسماء الله تعالى: المنّان، ومعناه: المعطي ابتداءً، ولله المِنَّةُ على عباده، ولا مِنَّةَ لأحدٍ منهم عليه[14].

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مكن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (مكن).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 186، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 186.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وي).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (وي).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (وي).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 186.
(9) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 660.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منن).
(11) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (منن).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (منن).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (منن).
(14) الأزهري، تهذيب اللغة: (منن).

5) ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾: أصل (فلح) يدلُّ على الفوز والبقاء[1]. والفَلَح: الشَّقُّ، ومنه فلحتُ الأرض؛ أي: شققتها للحرث. وقيل: الحديدُ بالحديد يُفلَح؛ أي: يُشَقُّ. والفَلاح: الظَّفَر وإدراك البُغية، والفوز والنَّجاة، والبقاء في النَّعيم والخير، وهو ضربان: دنيويّ وأخرويّ[2]. وقولهم في الأذان: (حيَّ على الفلاح)؛ أي: أقبِلْ على النَّجاة والظَّفَر، وأسرِع وعجِّل إلى الفوز والبقاء الدّائم الذي جعله الله لنا بالصَّلاة[3]. وقيل لأهل الجنَّة: مفلحون؛ لأنَّهم يفوزونَ بالبقاء الأبديِّ فيها[4]. وأفلح الرَّجل: ظفرَ وفاز بما يُغتَبَط به، وفيه صلاحُ الحال. ويقال لكلِّ من أصاب خيرا: مُفلِح[5]. وقوله تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: لا يظفر الكافرونَ بمرادِهم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صـرفُ اللـهِ عن المرءِ ما يتمنّاه، غالبًا ما تكون فيـه السَّـلامـةُ والنَّجاة

يحكي لنا المولى جلَّتْ قدرتُه في هذه الآيةِ الكريمة عن تغيُّر حالِ هؤلاء الَّذين تمنَّوا أن يكونَ لهم مثلُ قارونَ من الفضل والنِّعمة، بعدما شاهدوا ما حلَّ به من العذابِ والنِّقمة، فيقول: وصار أولئك الَّذين تمنَّوا مكانَ قارونَ وموضِعَه من الدُّنيا بالوقت القريبِ؛ يقولونَ - بعدما عاينوا ما نزلَ به من العقاب - على سبيل التَّندُّم والاعتبار: ألم تر أنَّ الله يوسِّع الرِّزقَ لمن يشاءُ من خلقه، ويضيِّقُه على مَنْ يشاء؛ لحكمة يعلمُها سبحانه، لا لفضلِ كرامةٍ تقتضي الوسعَ، ولا لهوانٍ يوجبُ الضّيق، وإنَّما لهذه الحكمةِ البالغة والحجَّة الواضحة، ولولا أن تَفَضَّلَ الله علينا بمقتضى هذه الحكمة فصرف

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فلح).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (فلح).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (فلح).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فلح).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 363.

عنّا ما كنّا نتمنّاه من الفضل والمال لخَسَفَ بنا الأرضَ كما خَسَفَ بقارون، ألم تعلمْ أنَّه لا يفوزُ الكافرونَ بالسَّعادةِ الدّائمةِ لا في الدُّنيا ولا في الآخرة؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ الوصل في الآية:

بيانُ حالِ مَن حلَّ عليه العقاب، ومَنِ اعتبرَ به فتابَ لربِّه وأناب

عطف النظم الجليل الجملة الفعلية في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ على الجملة الفعلية ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[2]، للجمع بين حصولِ العقاب لقارونَ الكافرِ بنعمة ربّه، الجاحدِ لفضله، المانعِ حقَّ اللّه فيما آتاه، وحصولِ الاعتبار للّذين تمنَّوا مكانَه بالأمس لمّا رأوا ما صنعَ اللّه به. والغرض من الجمع بيانُ انقلابِ موقفِ الجاهلين من حالةِ التمنّي والإعجاب إلى حالة التبرّي والشُّعور بالمِنَّة الإلهيّة عليهم فلم يُخسَفْ بهم. وممّا حسَّن الوصلَ بين الجملتين: اشتراكُهما في الخبريَّة، وكونِ فعلَيهما ماضيَين، ووجودِ المغايرةِ بينهما، مع التَّلاؤم الفكريّ والتَّجانس المعنويّ، فالأولى لبيان ما عوقب به قارون، والثّانية لبيان أثرِ هذه العقوبةِ على الآخرين، وما تكلَّم به النّاجونَ النّادمون.

دلالة التَّعبير بالماضي:

إفادةُ تحقُّق الوقوع؛ لتأكيد الإنابة والرُّجوع

التَّعبيرُ بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ لحكاية فعلٍ قد مضى؛ إذ الآياتُ تقصُّ علينا ما حصلَ في قصَّة قارون من أحداثٍ ومواقف. كما أنَّ التَّعبير بالماضي قد أفادَ التَّأكيدَ والدّلالةَ على تحقُّق الوقوع؛ لإفادةِ تحقُّق قولهم، وجهرِهم بالنَّدامة على ما تمنَّوه، ورجوعِهم كذلك إلى التَّفويض لحكمةِ اللّه فيما يختارُه سبحانه لمن يشاءُ من عباده. ونلمحُ في دلالة الفعل (أصبحَ) أنَّ الخسفَ قد وقعَ ليلًا،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 339 - 342.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 378.

فدخلوا في وقت الصَّباح قائلينَ بالتفويض ومستشعرينَ بالحكمة الإلهيّة، لأنَّ الفعلَ الناقص (أصبح) يدلُّ على الاتّصاف بالخبر في وقت الصَّباح، ويحتملُ أن يكونَ دالًا على مطلق الصَّيرورة والتحوُّل؛ دون اقتران بوقتِ الصَّباح.

نكتة التَّعبير بالموصول وصلته:

تحقيقُ البيان الّذي يستدعيهِ الكلام

جاء التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه الفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ﴾ تحقيقًا للبيانِ الذي يستدعيهِ الكلام[1]؛ فمتلقّو هذه القصَّة وتالوها لا يعرفونَ عن هؤلاء غيرَ ما جاء في سباقِ القصَّة مِن أنَّهم تمنَّوا مكانَ قارونَ بالأمس، وقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وقال لهم أولو العلم: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾. كما أفادَ العدولُ عن (المتمنون) إلى الجملةِ الفعليّة لتأكيدِ حالةِ التمنّي الصّادرة منهم قولًا وإرادةً، وبيانِ علّة إنابتِهم ورجوعِهم إلى الحقِّ بعدَ أنْ غلبَتْهم أهواؤهم، وانتصرَتْ عليهم شهواتُهم.

دلالة التَّعبير بالمجاز المرسَل:

إظهار تمام نعمة الله على مَن تمنَّوا مكانًا بالأمس خُسِف به اليوم

عبّر النظمُ الكريم عن المتمنَّى بلفظ (المكان) في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ الدالِّ باعتبار أصله على المحلِّ والفراغ الذي تستقرُّ فيه الأشياءُ وتتحيّزُ، ولا يكون ذلك مقصودًا لهم؛ لأنَّ التمنّيَ لا يكون للمكانِ الّذي يجلسُ فيه المكين، بل للحالةِ والهيئة التي تحيطُه ويبدو عليها، فيكون هنالك مجازٌ مرسل بذكرِ المكان وإرادةِ حالةِ المكين فيه وهيئتِه، والعلاقةُ هي المكانية، ولذا فهو مستعمَلٌ مجازًا في الحالة المستَقِرّ فيها صاحبُها. وقد يُعبَّر عن الحالة أيضًا بالمنزلة[2]؛ إذ مكانُ قارون "هو ما كان فيه مِن النَّعيم، والزِّينة، والتَّفاخُر بالأموال، والتَّعاظُم بالذَّهب، والفضَّة، والعمارات

(1) الميداني، البلاغة العربية: 1/ 430.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 186.

الشّامخة، والفُرُش الوثيرة"[1]، وغيرها من مظاهر الرَّفاه والتَّرف. وكان في تمنّيهم أن يكونَ لهم مثلُ ما لقارون بالأمس، ورؤيتهم هذه المكانة المتلاشيةَ اليومَ إظهارٌ للمفارَقة، وبيانٌ تمام النعمةِ عليهم.

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾:

قـــربُ الـزَّمـان وتـغـيُّر الـحـال بعد بيانِ سوء المآل

عبّرَ النظمُ الجليلُ عن متعلِّق التمنّي بـ(الباء) الجارّة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ الموضوعة أصالةً للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]؛ وهي في قوله تعالى: ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ للإلصاق المجازيّ الممزوج بالظرفيَّة؛ فكأنَّه جعلَ الأمس شيئًا التصقَتْ به أمنيَّة الجاهلينَ بأن يكونوا مكانَ قارون، والدّالّ على قُرب الزَّمان، إبرازًا للمفارقةِ وتغيُّر الحال بعدَ وقوفِهم على حقيقةِ المآل. وقيل: هي مُتمحّضةٌ لمعنى (في)، والملاصقُ للزَّمان والمكان حاصلٌ فيهما[3].

معنى (اللّام):

الجهّالُ يتقلَّبون بـــينَ الـضَّـــلالِ والهُدى

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ للعهد الذِّهنيّ؛ أي: الأمس القريبِ الذي ما زالَ حاضرًا في ذهن السّامع، وهو الّذي وقع فيه التَّعالي والاستكبار مِن قارون بماله وزينته، ممّا فَتَن به الجاهلينَ بحقيقةِ الأمور وغرَّهم غرورًا.

بلاغةُ المجاز في قوله تعالى: ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾:

مُلكُ قـارونَ قد زالَ وانـقـضى كالأمسِ

عبّر النظمُ الجليل باسم الزمان معرّفًا بأل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ ويرادُ به الزَّمانُ الماضي القريب، وإنْ لم يكن قبلَ يومِهم الذي هم فيه؛ أي: قد يُذكر ولا يُراد به اليومُ الذي قبلَ يومك، ولكن بمعنى الوقتِ المستقرَب على طريق الاستعارة، بتشبيهِ القريب

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 120.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/ 502.

الوقوع بالواقع أمس، وهو مجازٌ شائعٌ. وجوّز حملُه على الحقيقة، ولذا يُلغَزُ بها فيقالُ: ما كلمةٌ إذ عُرِّفت نُكِّرت وإذا نُكِّرت عُرِّفت، والعطفُ بـ(الفاء) التي تقتضي التَّعقيبَ في قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا﴾ يدلُّ عليه[1]. فلا يكون الخسف قد وقع عقيب التمني ليلًا مباشرةً. ولو حُمِل (الأمس) على ظاهِره - أي: ما قبْلَ يوم الخَسْفِ وهو يومُ التَّمنّي - يكون التَّعبيرُ بـ﴿وَأَصْبَحَ﴾ دالًّا على أنَّ الخَسْف بقارون وبداره كانَ ليلًا، وهو أفْظَعُ العذابِ؛ إذ اللَّيلُ مَقرُّ الرّاحةِ والسُّكونِ، فيَكونُ فيه اعتِقابُ العذابِ خروجَه في زينَتِه، وفي ذلك تعجيلُ العذابِ[2].

بلاغة الطِّباق:

الـطّـبـاقُ بيانُ الـفـرق بين الغاياتِ الأسمى والأخسّ

آثرَ النظمُ الجليل استعمالَ الطّباق بين ﴿وَأَصْبَحَ﴾ و﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ لإبرازِ المعنى وتوضيحِه؛ حيثُ ناسبَ ذكرُ الصَّباح الحالةَ التي تحوَّلوا لها، والتي انقشعَتْ عنهم فيها حالةُ الإعجاب بمتاع الدُّنيا الزّائل الزّائف. وناسبَ كذلك ذكرُ المساءِ الذي يصحبُه الظَّلام حالةَ الغشاوة التي كانت على أعيُنهم، فرأوا ما كان عليه قارونُ منتهى الأمل والغاية المثلى! فكأنَّهم صاروا إلى النّور والهدى بعدما كانوا في الظَّلام والضَّلال وانطماس البصيرة. وهنالك ملمحٌ آخر يشير إليه الطّباق، هو أنَّ الجاهلين بأقدار الله تعالى وعظيمِ حكمته يتسرَّعون في بناء الأحكام واتخاذِ القرارات، فهم بالأمس تزيغُ قلوبهم، وفي الصّباح يهتدون، بخلاف أهلِ العلْم والحكمة، الذين يسيرونَ على منهجٍ ثابت ومسار محكَمٍ.

دلالة التَّعبير بالمضارع:

تـأكـيـد الـتَّـوبـة والاستغفار

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ يفيدُ تكرُّر وقوعِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 329.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 328.

القول منهم وتجدُّدَه؛ أي: صاروا يقول بعضُهم لبعضٍ: (ألَم تعلموا أنَّ الله.. إلخ)[1]؛ وهذا لإظهار التَّحسُّر والنَّدامةِ على ما تمنَّوه؛ والرُّجوعِ إلى التَّفويضِ لحكمة الله تعالى فيما يختاره لمن يشاءُ من عباده[2]. ونلمحُ أنَّ في تمنِّيهم السابقِ عبّر النظمُ الجليلُ بالمضارع أيضًا فقال: ﴿يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الدالّ على شدَّة الانهماك بالدنيا ومفاتنِها، وبعد أنْ رأَوُا الآياتِ استعملوا ذاتَ الفعل للدلالة على تأكيدِ التوبة بالتجدُّد والاستمرار على ذلك القول.

المعاني المحتملة لـ ﴿وَيْكَأَنَّ﴾:

تعدُّد التَّأويلات باختلاف التَّقديرات

كلمة ﴿وَيْكَأَنَّ﴾ مركَّبةٌ من ثلاث كلمات: (ويْ)، وكافُ الخطاب، و(أنَّ)؛ فأمّا (وي) فهي اسمُ فعلٍ، بمعنى: أعجبُ. وأمّا (الكاف) فهي لتوجيهِ الخطابِ تنبيهًا عليه، مثلُ الكافِ اللّاحقةِ لأسماءِ الإشارة. وأمّا (أنَّ) فهي (أنَّ) المفتوحةُ الهمزة - أختُ (إنَّ) المكسورةِ الهمزة - فما بعدَها في تأويلِ مصدرٍ هو المتعجَّب منه، فيُقدَّر لها حرفُ جرٍّ ملتزَم حذفُه لكثرة استعمالِه، وكان حذفُه مع (أنَّ) جائزًا، فصار في هذا التَّركيب واجبًا، وهذا الحرفُ هو اللّام أو (من)، والتَّقدير: (أعجبُ يا هذا من بَسْطِ الله الرِّزقَ لمَن يشاءُ). وكُلُّ كلمةٍ من هذه الكلمات الثَّلاث تُستَعْمَل بدون الأخرى، فيقال: (ويْ) بمعنى: أعجب، ويقال (وَيْكَ) بمعناه أيضًا.

وذهب الخليل ويونس وسيبويهِ والجوهريُّ والزَّمخشريُّ إلى أنَّها مرَكَّبة من كلمتين (وَيْ) و(كأنَّ) التي للتَّشبيه. والمعنى: التَّعجُّب من الأمر، وأنَّه يشبهُ أنْ يكون كذا، والتَّشبيهُ مُستعمَلٌ في الظَّنِّ واليقين. والمعنى: أما تعجبُ كأنَّ الله يبسطُ الرِّزق؟.

وذهب أبو عمرو بن العلاء والكِسائيُّ واللَّيث وثعلبٌ - ونَسَبه في

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 61.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 186.

(الكشاف) إلى الكوفيّين (وأبو عمرو بصريٌّ) - أنَّها مركَّبة مِن أربعِ كلمات: كلمة (ويل)، وكاف الخطاب، وفعل (اعلمْ)، و(أنَّ) مشدَّدة النّون، وأصله: (ويلَكَ اعلَمْ أنَّه كذا)، فحذفَ لامَ الويل، وحذفَ فعلَ (اعلم)، فصارَ (ويكأنَّه).

ومعنى الآية على الأقوال كلِّها: أنَّ الذين كانوا يتمنَّون منزلة قارونَ ندِموا على تمنّيهم لمّا رأوا سوءَ عاقبته، وامتلكَهم العَجَبُ الكبيرُ من تلك القصَّة حتى إنَّهم اختاروا صيغةً صوتيّةً تُظهِرُ ذلك العجبَ من مقاديرِ الله في الانتقامِ من المتكبّرين، ومِن خَفيّ تصرُّفاتِ الله تعالى في خلقه، وعلِموا وجوبَ الرِّضى بما قُدِّر للنّاس مِن الرِّزق - فخاطبَ بعضُهم بعضًا بذلك وأعلنوه[1].

دلالة التَّعبير بعنوان الألوهيَّة:

الأرزاق مقسَّمة بحكمةٍ ورحمة، لا يفطنُ لها إلّا مؤمنٌ موحِّد

أوثر التَّعبيرُ بعنوان الألوهيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ إشارةً إلى التَّذكير بوجوبِ عبادته تعالى، واستحقاقِه للعبادة مُنفردًا، وأنَّ تقسيمَ الرِّزق بين العباد إنَّما نوّع فيه بينَ بسطٍ وتوسعة، وتقديرٍ وتضييقٍ لأجل حكمةٍ بالغة، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [النحل: 71]؛ ذلك أنَّه ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشورى: 27]. والتَّسليمُ بهذه الحكمة يقتضي إيمانًا بالغيب، ويقينًا بحكمة الله تعالى، ورضًا بقضائه، وتسليمًا لقدره، وكلُّ هذا من مقتضياتِ توحيدِ الألوهيَّة؛ فلذلك عُبِّر بها. وأفاد تقديمُ المسندِ إليه على الخبرِ الفعليّ دلالةَ الاختصاص، التي تفيدُ أنَّ أمر الرزق توسعةً وتضييقًا مختصٌّ بالله تعالى لا يشاركُه فيه غيره.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.

دلالةُ التَّعبير بالخبرِ مُضارعًا:

بيانُ سعةِ رزق الله الذي يخلقُ ما يشاءُ ويختار

عُبِّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ لإفادةِ معنى التَّجدُّد والاستمرار، ولبيانِ بسطِ الرِّزق من الله سبحانه وتكراره، وللدَّلالة من حيث الزمن على الحال والاستقبال، فتحضرُ تلك المعاني في بسطِ الرِّزق الذي هو بسطٌ مُتَجدِّد فتثيرُ انبساطًا في النفس، وزمانُ الاستقبال في المضارع لمعنى ضمانِ وصولِ الرِّزقِ لمن شاءَ الله له، وأنَّه حقٌّ.

معنى (أل) التعريفية:

حقيقةُ الرزق بجميعِ أفرادِه ملكٌ لله تعالى

آثر النظم الكريم تعريف الرزق بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ مرادًا به الجنسُ والحقيقة؛ والحقيقة إنما توجد في ضمن أفرادها، فيشملُ كلَّ رزقٍ مقسومٍ مضمونٍ مِنَ الرَّزاق ﷻ بجميع صورِه وأشكالِه.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لِمَن﴾:

الرزقُ اختيارٌ إلهيٌّ يسوقُه لمن يشاء

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاختصاص[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ للاختصاصِ الذي يفيدُ الاستحقاق؛ حيث يخصُّ الله تعالى بعضَ عباده ببسطِ الرِّزق لهم، بمحضِ مشيئتِه تعالى، لا لكرامةٍ توجبُ البسطَ كما زعمَه قارون، وصناديدُ قريش الكافرون. وفي تعليقِ البسطِ بالمشيئة إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ عبدٍ مرزوقٌ، لكنَّ الاختلاف في البسطِ وعدمِه، والبسطُ قد يكونُ كرامةً أو استدراجًا، والتمييزُ بينهما يتوقّفُ على اعترافِ العبد بالرزّاق، وإسنادِه الفضلَ له والقيامِ بواجباتِ ذلك المال بشكلٍ شرعيٍّ.

دلالة التَّعبير بالموصول وصلته:

تحقيقُ البيان وبيانُ علَّة العطاء، نفيًا لما ادَّعاه الجُهلاء

عبّرَ النظمُ الجليل في قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ بالاسم الموصول، وفيه إبهامٌ يُحْدِثُ في نَفْسِ المتلقّي تشوُّفًا وتَشَوُّقًا

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

لمعرفةِ المراد به عن طريقِ صِلَته، والدّاعي للتَّعبير بالموصول هنا هو أنَّه ليس لدى مَن يتلقَّى الكلامَ عِلْمٌ بشيء مِن المعرِّفات التي تعرِّف العنصر الاسميَّ، أوْ تميِّزه في الجملة عن غيره، إلّا اتِّصافُه بالوقوع تحتَ المشيئة، كما دلَّت عليه هنا صلةُ الموصول[1]، فليس لمن يُبسَط له الرِّزقُ مِن صفةٍ أوجبتْ له بسطَ الرِّزق إلّا أنَّ الله تعالى شاءَ أنْ يبسطَ له الرِّزق، لحكمةٍ يعلمُها ﷻ، وفيه تعريضٌ بقارونَ الذي زعم أنَّه إنَّما أوتي المالَ عن استحقاق لِعلم عنده، أوْ لكرامةٍ له عند الله تعالى أوجبتْ له ذلك!

دلالة التَّعبير بالمضارع صلةً:

أوثر التَّعبير عن جملةِ الصّلة بالمضارع في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ لإفادةِ استمرار تعلُّق مشيئةِ الله تعالى ببسطِ الرِّزق؛ أي: إنَّه سبحانه يمنحُ مَن يختاره مِن عباده على الدَّوام، سواءٌ كان عنده ما يحتالُ به على الرِّزق أم لا، فلا يقطعُ أحدٌ رزقَ الله تعالى عن أحد، ولا يعارضُ مشيئةَ الله سبحانه شيءٌ كائنًا ما كان، وفي هذا دليلٌ على عدم انفكاكِ المشيئة عن الرِّزق المتجدِّد بتجدُّدِ أنفاسِ المرزوقينَ.

عـدم انـفـكـاك مـشـيـئـة ربِّ الـعـالـمـين عـن الـرِّزق المتجدِّد بتجدُّد أنفاس المرزوقين

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾:

الأصلُ في معنى ﴿مِنْ﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداءِ الغاية[2]، وهو في قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بهذا المعنى؛ أي: إنَّ العباد هم مبتدأُ تعلُّقِ مشيئة الله تعالى ببسطِ الرِّزق أوْ قبضه. وقد أفاد هذا المعنى فائدةً لطيفة، وهي أنَّه لن يخرج عبدٌ من ظلِّ دوحة المشيئةِ، ولن يُحرمَ أحدٌ تحتَ ظلِّها مِن ثمارها، فالنّاس إمّا مبسوطٌ له رزقه وإمّا مضيَّقٌ عليه؛ أي: إنَّهم جميعًا مرزوقون، فليس فيهم محرومٌ أوْ

لـن يـخـرج عبدٌ مِـن ظـلِّ دوحـة المـشـيـئـة، ولـن يُحرم أحدٌ تحت ظلِّها مِـن ذَوْق ثمارِها

(1) الميداني، البلاغة العربية: 1/ 429.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

معدوم، ويُصدِّق هذا قولُه تعالى: ﴿*وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: 6]. والحاصل أنَّ ﴿مِنۡ﴾ - بدلالته على معنى ابتداء الغاية - قد أفاد بيانَ الجنسِ والإبهامِ الواقع في الموصول أيضًا؛ أي: يبسطُ اللهُ الرِّزق للَّذين تعلَّقتْ إرادتُه ومشيئتُه برزقِهم من عباده، وهنالك إشارةٌ إلى أنَّ الله ﷻ في بسطِهِ الأرزاقَ وقدرِها مُتصرِّف تصرُّف المالكِ في مُلكه.

نكتة الإضافة في ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾:

الإضافةُ إلى العظيم تفيدُ التَّشريف والتَّكريم

آثرَ النظمُ الكريم إضافةَ (العباد) إليه تعالى في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ إيماءً إلى أنَّ الله سبحانه في تصريفِ أرزاقِ عباده بَسْطًا وقَدْرًا مُتصرِّفٌ تَصَرُّفَ المالك في مُلكه، إذ المبسوطُ لهم والمقدورُ عليهم كلُّهم عبيدُه، فحقُّهم الرِّضا بما قسمَ لهم مَوْلاهم[1]. وفي ذكر المرزوقينَ بسطًا وتضييقًا بعنوانِ العبوديّة إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الرّزقَ محضُ تفضُّلٍ وإكرام، من دونِ استحقاقٍ واستيجابٍ عليه تعالى. وفي التصريح بالعبوديّة أيضًا إشارةٌ إلى علّة الاختيارِ الإلهي في الرّزق؛ إذ شأنُ السيّدِ التحكُّم بأرزاق عبيده. وأفادتِ الإضافةُ من التَّشريفِ ما لا يخفى؛ إذ الإضافةُ إلى العظيم تفيدُ التَّشريف والتَّكريم، وفيها كذلك أنوارٌ من الرَّحمة، وفيوضٌ من الحنوّ، فلا يفخرُ مَن بُسط له في رزقه، ولا يضجرُ مَن قُدِر عليه فيه، فالجميعُ عبادُ الكريم، ولن يضيّع الكريمُ عبادَه!

نكتة عطف الجملة الفعلية المضارعية:

العطفُ لبيان الاستواءِ في قدرته سبحانه على السَّلب والعطاء

عَطفُ الفعلِ المضارع الدّالّ على التَّضييق على الفعل المضارع الدّالِّ على البسط والسّعة في قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۚ﴾ - لبيانِ استواءِ الفعلَيْنِ عند الحكيم ﷻ، فهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.

يقدرُ كما يبسطُ، وهو يبتلي بالتَّضييقِ كما يبتلي بالبَسْط، وأنَّ المبسوطَ له رزقُه مأمورٌ بالشُّكر قولًا وفعلًا، والمقدورَ عليه فيه مأمورٌ بالصَّبر وعدمِ التشهّي لأموالِ الظّالمين والمتكبِّرين، وكما أفاد المضارع استمرارَ البسطِ وتجدُّدَه فإنَّ التقدير للرّزق مستمرٌّ ومتجدّدٌ أيضًا، وذلك شأنُ السيّد مع عبيده، فيختارُ لهم ما يتّفقُ وحكمتَه تعالى من المصالحِ، التي لا سبيلَ للوقوف عليها وإدراكِ مقاصدها والإحاطةِ بأحوالها.

بلاغةُ الإيجاز بالحذف:

حذفُ متعلِّقِ الفعل ﴿وَيَقْدِرُ﴾ إيجازًا للعلْم به من سياق الآية، والتَّقدير: (ويقدر الرِّزق على مَن يشاءُ من عباده)، فاستُغني عن كلِّ هذا بذكر الفعل ﴿وَيَقْدِرُ﴾ معطوفًا على سابقه، مجموعًا معه في حُكمه. وأوثر ذكرُ متعلِّقاتِ فعلِ البَسْط، وهي المفعول به ﴿ٱلرِّزْقَ﴾، ولامُ الاختصاص وما دخلت عليه، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، مع ذِكر العبوديَّة، وحذفُ متعلِّقاتِ فعلِ التَّقدير؛ تغليبًا لجانب الرَّحمة والعطاء، ولُطف ربِّ الأرض والسَّماء على جانبِ التضييقِ والتقدير.

حـذفٌ يتطلّبُه المـقـام؛ لجذب الاهـتـمـام، ولـلـتَّـفـخـيـم والإعظام

بلاغة الطِّباق في الآية:

ورد الطِّباق بين قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ﴾، وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ لإبراز المعنى وتوضيحِه؛ ولبيانِ قدرته سبحانه على فعلِ الضِّدَّين؛ وذلك لكمالِ قدرته سبحانه وعظيمِ حِكمته، فيفعل كلَّ واحدٍ من البسط والقَدْر؛ أي: التَّضييق والقَتْر، لا لكرامةٍ توجبُ البَسْطَ، ولا لهوانٍ يوجبُ التَّضييق[1].

الطِّباق للإثبات والتَّقرير، وبيانِ قدرته سبحانه عـلـى الـبـسـط والتَّقدير

بلاغةُ الاستعارة أو الكناية في الآية:

آثَرَ النظم الكريم إيرادَ الكناية في التعبير عن الإعطاء والتوسعة بالرزق، والمنع والتقدير على العباد فيه، وذلك في قوله

يُـعـطـي الـلـه تـعـالى لحكمة ويمنعُ لمصلحة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 329.

تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾؛ إذ أصلُ البسط: امتدادُ الشَّيء، وانفراشُه، واتّساعُه، ومنه البِساط، وهو اسمٌ لكلِّ مبسوط[1]. وأصل القَدْر: ضبطُ الشَّيء القابلِ للاتّساع والانبساط وحَكْمِه؛ لئلّا يَسترسِلَ[2]، وتقديرُ الله تعالى الأشياءَ على وجهين؛ **أحدهما:** بإعطاء القدرة، **والآخر:** بأنْ يجعلَها على مقدارٍ مخصوص ووجهٍ مخصوص حسبَما اقتضتِ الحكمة[3].

فيكونُ البسْطُ في قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ مستعمَلًا مجازًا في السَّعة والكثرة[4]، فكأنَّ الرِّزق جُعل كالبِساط يُفرَش ويوسَّع ويُمدَّد، والقَدْرُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ مستعمَلًا مجازًا في القلَّة؛ لأنَّ التَّقديرَ يستلزم قلَّة المقدَّر لعُسر تقدير الشَّيءِ الكثير. قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: 7][5]. فيكون المجاز استعاريًّا بتشبيه الإعطاء والتوسعة بالبسط والامتداد، وتشبيه المنع والتضييق على المرزوقين بالتقدير، ويَحْتَمِل أن التركيبين كنايتان عن الإعطاء الكثير والإعطاء القليل المحدّد.

علَّة الفصل في الآية:

تـوسُّـط بـين الـكـمـالـين، وفـصـلٌ بـين المعنيين

آثرَ النظمُ الكريم فصلَ الجملةِ الاسميّة الخبرية من قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ - وهي جملةٌ لا محلَّ لها من الإعراب؛ استئنافيَّةٌ في حيّز القول[6] - عن سابقتها الفعلية الإنشائية: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ لما بينهما من (كمال الانقطاع) لاختلافهما خبرًا وإنشاءً؛ إذ الأولى هي تعجُّبُ القومِ من حكمة

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، الاشتقاقي: (بسط).
(2) ابن فارس، المقاييس، وجبل، الاشتقاقي: (قدر).
(3) الراغب، المفردات: (قدر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(6) محمود صافي، الجدول: 10/ 298.

اللّه تعالى في بسط الرّزق وتقديره، والثّانية إعلامُهم بامتنانهم للّه تعالى أنْ لم يأخذهم بتمنّيهم، ولذا أوثرَ لها أن تُفصَلَ لتكون باستقلالها مقصودةً لذاتها، مؤسِّسةً معنىً جديدًا بعد التَّعجُّب وهو الامتنان والإقرارُ بأنَّ النِّعمة والمنَّة عليهم إنَّما كانت في المنع لا في العطاء. بينما كانتْ نقمة قارون في العطاء والسِّعة.

نكتةُ التعبير بـ﴿لَوْلَآ﴾:

تعليقُ الامتناع بالوجود تحديدٌ لعلّة السّلامة

آثرَ النظمُ الكريم التعبيرَ عن مدى امتنانِهم للّه تعالى بالنَّجاة مما آل إليه أمرُ قارون الّذي تمنَّوا مكانَه وحالَه ورزقَه بأسلوبِ الشّرط الدالِّ على تعليقِ مضمونِ الجواب بمضمونِ الشَّرط، ولكن بالأداة ﴿لَوْلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، وهي حرفُ شرطٍ دالٌّ على امتناع الجوابِ لوجود الشّرط، فتفيدُ تحديدَ سببِ السَّلامة والنّجاة من عذاب الخسفِ بوجود المنَّة الإلهية عليهم، فكانَ لوجودِها من حيثُ لا يشعرونَ - مع أنهم كانوا يتمنَّون حالَ قارون - سببٌ لنجاتهم، فالمنّ عليهم كان يتجسّدُ بعدم إعطائِهم رزقًا مثلَ رزق قارون، الّذين كانوا يتصوّرونه منعًا، لكنّه في الحقيقة كان عطاءً عظيمًا لصيرورته سببًا لنجاتهم من العذاب.

نكتة التّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾:

من الـرّزق العظيم الإنجاءُ من البلاء المبين

عُبِّر بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ دون الصَّريح (مَنُّه)؛ لما يفيده المصدرُ المؤوَّل مِن الدَّلالة على الزَّمن لاشتماله على الفعل، وهو مع ﴿أَن﴾ يدلُّ على مجرَّد معنى الحدثِ دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ مِن الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال. بخلاف المصدر الصَّريح، فليس فيه شيء من هذا[1].

دلالة التّعبير بالماضي في قوله: ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾:

يدلُّ التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ على تحقُّق وقوع

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 147 - 149.

المَنّ، وحصول اليقين بذلك، أي: لولا منُّ الله المحقَّق الوقوع، الذي سبق به الكتابُ، لخسف بنا.

نكتة التَّعبير بالفاعل بعنوان الألوهيَّة:

شـكـرُ المـنـعـمِ الحقيقيِّ عبادةٌ

أوثرَ التَّعبير بذكر الفاعل بعنوان الألوهيَّة في قوله تعالى: ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ للتعريضِ بالكفّار ومنهم قارون، الّذي نسبَ ما حصل عليه من نعمةٍ ورزقٍ ومالٍ وفيرٍ إلى علمِه وذكائِه وحسنِ تصرُّفِه، وذهل عن أنَّ ذلك كلَّه من فضل الله تعالى ومَنِّهِ على عباده. وهم لما تمنَّوا مكانه وأرادوا نيلَ ما ناله من مالٍ وحشمةٍ ووجاهة، تشبَّهوا به ساعةَ جهلهم، وتوهّموا أنَّ الله تعالى قد منعَهم ذلك المتمنّى، الذي حصروا عقولهم به وعدّوه النعمةَ الحقيقيّة التي لا تقابلها نعمةٌ، ولمّا سُقِط في أيديهم ورأوا ما آل إليه أمر المتمنّى؛ فهموا أنَّ تلك النعمةَ المتمنّاة ما هي إلا نقمةٌ تخلّصوا من وبالها، وأنَّ ما هم عليه من قلَّةِ رزق ما هو إلا نعمةٌ عظيمة من الله عليهم أدّت إلى نجاتهم، وكلُّ ذلك هو من فيض المنّ والكرم، الذي تعجزُ العقول عن إدراكه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ التمنّيَ الحقيقيَّ ينبغي أن يكونَ في مرضاةِ المنّان من العِلْم النافع والدّينِ القويم، وليس في المتاعِ الزائل والنّصيب الزائف من الدنيا الفانية.

معنى (على) في قوله: ﴿عَلَيۡنَا﴾:

الـدَّلالـةُ على الاسـتـعـلاء؛ لبيان فوقيَّة المنّ ورفعةِ العطاء

الأصلُ في معنى (على) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظُها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوّ[1]، وهي في قوله: ﴿مَّنَّ ٱللَّـهُ عَلَيۡنَا﴾ للاستعلاء المجازيّ، أي: استعلاء المِنَّة علينا لكونها من الله تعالى. فكأنَّ نعمة المنّ ثوبٌ سابغٌ جلَّلهم جميعًا، أوْ مظلَّة كبيرة نَجَوْا تحتها من خسفِ الغضب والسُّخط الإلهيّ.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 497، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 47.

بلاغة الإيجاز بحذف المتعلّق:

تعـمـيـمُ أوجـه الامـتـنـان، وتـعـظـيـم منَّة المنّان

حذفَ النظمُ مُتعلِّق الفعل ﴿مَّنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ لدلالة السِّياق عليه؛ وأصلُ الجملة: لولا أنْ منَّ اللّه تعالى علينا بالتَّجاوز عن تقصيرنا في تمنّينا ذلك لخَسَفَ بنا[1]. أو: لولا أنَّ مَنَّ اللّه علينا بعدم إعطائه إيّانا ما تمنَّيناه، وإعطائِنا مثلَ ما أعطاه إيّاه لخسف بنا[2]. أو: لولا أن منَّ اللّه علينا بالإيمانِ والصّبر والرّحمة[3]، فلم يعطنا ما تمنَّينا[4]، وعصمَنا مِن مثل ما كان عليه قارونُ مِن البَغْي والبَطَر[5]، فقد كان مِن فضل اللّه علينا أنَّه لم يستجبْ لأمنيّاتنا، ولم يؤتِنا مثل ما أوتي قارون؛ إذ إنَّه لو فعل لكان مصيرُنا كمصير قارون، ولخَسَفَ بنا وبدورنا الأرض، كما خسفَ به وبداره الأرض[6]. وكلُّ هذه المعاني صحيحةٌ وتحتملُها الآية، وهذه نكتةٌ أخرى من نِكات الحذف، وهي إفادةُ التَّعميم، ليشمل كلَّ منَّة ممّا يضيقُ عنه المقام لو ذُكر مفصَّلًا، وفي هذا تعظيمٌ لمنَّة المنّان ﷻ.

معنى (اللّام)، و(الباء) في قوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾:

الرّبطُ والإلصاق توكيدٌ للمعنى وتعميق

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط[7]، يفوحُ منها شذى التَّوكيد، والأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[8]؛ وهو هنا للإلصاق الحقيقيّ؛ أي: لخسفَ الأرضَ وهم ملتصقونَ بها. وفيه تشنيعٌ وتفظيعٌ لعقوبة الخسف وشدّته.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 330.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(3) أوضح التفاسير: 1/ 480.
(4) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 7/ 186.
(5) الدرة تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 7/ 120.
(6) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 391.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 378.
(8) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

نكتةُ حذف المتعلّق:

الحـذفُ لدلالة المقام، المفهومِ مِن الكلام

حُذِفَ متعلّقُ الفعل ﴿خَسَفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَسَفَ بِنَا﴾ لدلالة السِّياق عليه؛ إذ أصلُ الجملة لخسفَ بنا وبدورِنا؛ لقصدِ إثبات الفعل في ذاته، وهو حدثُ الخسف لما دلَّ عليه اللَّفظ من العقوبة والعذاب والإهانة بالسُّفول، جزاءً لابتغاء العُلوّ في الأرض بغير الحقّ.

توجيه القراءات القرآنيَّة:

ثـراءُ الـدّلالات بـاخـتـلافِ القراءات

قرأ حفصٌ عن عاصم، ويعقوبُ الحرفَ ﴿خَسَفَ﴾ في قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ بفتح الخاء والسِّين، أي: بالبناء للفاعل موافقةً ومشاكلةً لبناءِ ﴿مَّنَّ﴾ ودلالةً لما قبله عليه، من إسناد المنِّ إلى الله تعالى. وقرأ الباقون: ﴿خُسِفَ﴾ بضمّ الخاء وكسر السِّين[1]، أي: بالبناء للمفعول جريًا على الأصل فيه؛ للعلْم بالفاعل وهو الله سبحانه. وفي قراءة البناء للمفعول لطيفةُ إسنادِ المنّ لله تعالى بالبناء للفاعل كونه نعمةً وفضلًا، وبناءُ الخسف للمفعول جريًا على عادة القرآن في إسناد الفضل لله تعالى، وتنزيهه سبحانه عن إسناد غيره إليه، وإن كان الجميع منه على غرار: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: 10].

علَّة الفصل والقطع:

كمالُ الانقطاع بـين الإخـبـار والإنشاء

فصلَ النظم الكريم بين الجملة الإنشائية التعجبية: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عن سابقتها وهي الجملة الخبرية: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾؛ لما بين الجملتين من كمالِ الانقطاع لاختلافهما خبرًا وإنشاءً. وكُرِّرت جملةُ ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للتَّعجيبِ[2]، ولتأكيدِ ما قبله[3]، ولاتّصاله بما لم يتَّصلْ به

(1) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 341.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 18.

سابقُه[1]. وفي هذا الفصل والقطعِ إبرازٌ لحالةِ التعجُّب الانفعاليّة، بخلاف الإخبارِ الدالِّ على الإعلام والشُّعور بالامتنان، فتكون الآيةُ قد اشتملت في جانبيها على جملتينِ انفعاليتين اكتنفَتْهما جملةٌ خبريّةٌ إعلاميّةٌ وتقريريّةٌ، لأنَّ كُلًّا من بَسْطِ الرزق وإقدارِه أمرٌ لا يحاطُ بحكمتِه، وعدمَ فلاحِ الكافرين أمرٌ يثير العجبَ مع وضوح الآيات والدلائل، بخلاف الشُّعور بالارتياح من عدمِ نزول العذاب بهم مِنَّةً وتفضُّلًا من الله تعالى عليهم.

سرُّ إيثار النَّفي بـ﴿لَا﴾:

إفادةُ النَّفي المطلق غيرِ المقيَّدِ بزمن

﴿لَا﴾ تفيد النَّفي غيرَ المقيَّدِ بزمنٍ ماضٍ أوْ مستقبل، فـ﴿لَا﴾ ليست كـ(لم) التي لنَفْيِ الماضي، ولا كـ(لن) التي لنفي المستقبل، بل تدلُّ على مطلق النَّفي، دلالةً على نفي الفلاح في الماضي والحال والاستقبال، فلا يفلحُ الكافرونَ بحالٍ، ولا يكون لهم وجهٌ من الفلاح في أيِّ وقتٍ وظرفٍ.

دلالة التَّعبير بالمضارع المنفيّ:

إفادة تجدُّد الحرمان، لِعِظَمِ ما وقعوا فيه من الجحودِ والكُفران

أفاد التَّعبير بالمضارع المنفيّ في قوله تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الدَّلالةَ على التَّجدُّد والاستمرار له، ويصحُّ إطلاقُه على الزَّمان الحاضر والمستقبل، وفي نفي الفلاحِ عن الكافرين بطريق التَّعبير بالمضارع المنفيّ دلالةٌ على استمرار هذا النَّفي ودوامِه، وعدمِ انقطاعِه بحالٍ.

معنى (أل) التعريفيّة:

لا فلاحَ للجاحدين نعمةَ ربِّ العالمين

(أل) في قوله تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ موصولةٌ للدلالة على العموم، صلتُها وصفُها للدلالة على تعليلِ الحُكم المنفيِّ، أي: لا يفلحُ كلُّ كافر بسببِ كُفره وجحوده نعمةَ ربِّه المنّانِ الكريم، فقد نفت الآيةُ

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 434.

الفلاحَ عن كلِّ أحد استكبرَ على الإيمان باللّه تعالى، وكفرَ بنعمائه، وكذَّبَ بآلائه.

سرُّ التَّعبير بلفظ (الكفر):

الـكُـفـر سـترٌ لـلـفـطـرة الـقـويـمـة، وإعـراضٌ عن شكرِ النِّعمة العظيمة

آثرَ النظمُ الجليل التعبيرَ عن المنكرينَ نعمةَ اللّه تعالى بلفظ (الكفر) في قوله تعالى: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لأنّ أصلَ الكفر في اللُّغة: سترُ الشَّيء وتغطيتُه تغطيةً كثيفةً بحيث لا يظهرُ معها شيءٌ مِن المغطَّى، والكافرُ غطَّى في نفسه بعَماهُ شواهدَ وجودِ اللّه تعالى وعظمتِه الظّاهرة والباطنة[1]. وكُفرُ النِّعمة وكُفرانها: سترُها بترك أداءِ شُكرها[2]. ومن هنا كان التَّعبير بلفظ (الكفر) أنسبَ؛ لكونه مُتضمِّنًا - مع الكفر باللّه العظيم - كُفرَ النِّعمة، وهذا ما كان عليه قارونُ حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾. وأيضًا لتقدُّم الإشارة إلى الظُّلم في قوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [القصص: 76] مع كونهم قومَه وكونِه منهم!

بلاغةُ التَّذييل بجملة ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

التَّـذيـيـل للتَّأكيد، وبيانِ ما ينالُ الكافرين مـن الـوعـيـد، والـعـذاب الشَّديد

جملةُ: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ تذييلٌ؛ لبيان أنَّ بسطَ الرِّزق وتقديرَه لا علاقةَ له بالفلاح أو الخيبةِ والخسران، بل الفلاحُ مُتعلِّقٌ بالإيمان ولا يضرُّ معه فقرٌ، وعدمُ الفلاح مقارنٌ للكفر ولا ينفعُ معه غنىً، فقد تبيَّن أنَّ سببَ هلاكِ قارون هو كفرُه باللّه ورسوله ﷺ، وكفرُه نعمةَ اللّه تعالى وجحدُها[3]. "فالحكم القاطعُ الذي يمليه علينا هذا المشهَد، هو أنَّه لا فلاحَ للكافرين أبدًا، وإن كثُرت أموالهم، وملكوا الدُّنيا في أيديهم، إنَّهم هم الخاسرون خسرانًا مبينًا، في الدُّنيا والآخرة جميعًا"[4].

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، الاشتقاقي: (كفر).
(2) الراغب، المفردات: (كفر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 188.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 10/ 391.

بلاغةُ الإيجاز بحذف المتعلّق:

تعميمُ كفر المِلَّة وكفر النِّعمة

حُذِف متعلِّقُ الكفر في قوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، للتَّعميم، ولدلالة سياق الكلام عليه. والتَّقدير: الكافرون "لنعمة الله تعالى، أو المكذِّبون برسله وبما وُعِدوا مِن ثواب الآخرة"[1]. ويحتملُ أنَّ اسم الفاعل مشتقٌّ من (كفر) المتعدّي المنزّل منزلةَ اللازم، بمعنى: الّذين وُجد منهم الكفرُ وتحقَّق فيهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

أمسِ والبارحة:

أمسِ، اليومُ الذي قبل يومك، والبارحةُ اللّيلةُ التي قبلَ ليلتك

حقيقة (أمسِ): اليومُ الذي قبلَ يومِك، ويليه يومُك، وإذا عُرِّفَ بـ(أل) فإنه يُعبَّر به عن مطلق الزمان الماضي، كقول الله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: 24]. والتعبيرُ بالأمس عن ذلك كالتعبيرِ باليوم عن الحاضر، وبالغدِ عن المستقبل[2]. وأمّا البارحة: فهي اللّيلة التي قبل ليلتك، وأصلُها من بَرِحَ، أي: زالَ عن موضعه[3]. ولا يقالُ للّيلة الماضية: البارحة إلّا بعدَ الزوال، وإلا فهي اللّيلة[4]؛ فيقال: فعلنا البارحةَ كذا وكذا للَّيلة التي قد مضتْ، ويقالُ ذلك بعد زوالِ الشّمس، ويقالُ قبل الزَّوال: فعلنا الليلةَ كذا وكذا[5].

البسط والتوسعة:

البَسطُ أشمَلُ من التَّوسِعة

الفرقُ بينهما أنَّ بَسْطَ الشَّيء: نَشْرُه وتوسيعُه[6]، وجذرُه أصلٌ واحدٌ، وهو امتدادُ الشَّيء[7]؛ فيُلاحَظ في البَسط معنى المدّ والنَّشر مع التَّوسيع، وهو بذلك أشمَلُ من التَّوسِعة. وجذر التَّوسعةِ كلمةٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 27.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمس).
(3) ابن فارس، المقاييس: (برح).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برح).
(5) ابن منظور، اللسان: (برح).
(6) الراغب، المفردات: (بسط).
(7) ابن فارس، المقاييس: (بسط).

تدلُّ على خلافِ الضّيق والعُسْر. ونَقيضُ البَسط: القَبض[1]، وأمّا نَقيض التَّوسعة: فهو التَّضييق[2]. وقد يُعبّر عن القبض بلازمه وهو التقديرُ على الناس، كما في الآية؛ إذ مقابلُ البسط القبضُ، لكنه عبّر عنه باللّازم.

الفلاح والفوز:

الفرقُ بينهما أنَّ الفوز يدورُ معناه المحوريّ حول عبورِ مسافةٍ قفر جافّة بالغةِ الامتداد[3]. وأمّا الفلاح فيدورُ معناه المحوريّ حولَ الشَّقِّ والنَّفاذ[4]. فممّا سبق يتبيَّن أنَّ الملحظ في الفوز هو العبور والتَّجاوز، وأما الملحظُ في الفلاح فهو الشَّقُّ والنَّفاذ؛ لذلك يقال لمَن وصل أوَّلًا إلى نهاية المسابَقة: فاز بالمسابَقة، ولا يقال: أفلحَ بها؛ لِما في الفوز من معنى العبور، ولكنّ يلزمُ من الفلاح الفوزُ.

الـفـوز يـكـون بعبور وتجاوز، والـفـلاحُ يكون بشَقٍّ ونفاذ

(1) ابن منظور، اللسان: (بسط).
(2) الجوهري، الصحاح: (وسع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فلح).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»